آفاق الحرّية

مختار لوبيس، كاتب في السّجن

مختار لوبيس كاتب اندونيسي في اواسط الاربعينات من عمره ، كان حتى كانون الاول (ديسمبر) ١٩٥٦ ،وهو التاريخ الذي تم فيه اعتقاله لاول مرة ، واحدا من ابرز الصحفيين والمحررين في اندونيسيا .فقد كان المحرر الخارجي لوكالة انباء انتارا،ثم اصبح رئيسا لتحرير « اندونيسيا رايا» وناشرها ، الى ان منعت الحكومة صدورها في ١٩٥٨ . وهو مؤلف روائي ، صدرت له روايات عديدة ، نالت احداها ، « غسق في جاكارتا » ، شهرة وصيتا وترجمت الى اربع لغات .

وفي ١٩٥٦ فرضت عليه الاقامة الجبرية في منزله ، ولم ترفع عنه حتى اواسط ١٩٦١. وبعد اطلاق سراحه قام بجولة قصيرةفي الخارج ، وعادت السلطات فاعتقلته اثر رجوعه منها .

وما برح مختار لوبيسفي السجن منذ ذلك الحين، دون ان يقدم الى المحاكمة .

وفي اواخر ١٩٦٥ تم نقله من جاوه الشرقية، حيث كان محتجزا ، الى جاكارتا . وهو الآن في ثكنة الحجز العسكرية في جاكارتا ، حيث محتجز معه عدد من المفكرين والمثقفين الاندونيسيين.وقد اهملت السلطات جميع النداءات التي وجهت اليها لاطلاق سراحه، او على الاقل لتقديمه الى المحاكمة .

ولد مختار لوبيس في ١٩٢٢ في سومطرة ، ابنا لموظف في السلك المدني للجهاز الهولندي الحاكم ، كان باستمرار ينصح ابناءه بالا يصبحوا ، مثله ، موظفين في سلك دولة اجنبية حاكمة .

وقد كتب لوبيس في رسالة خاصة مؤخرا :

« عندما كنت طفلا شهدت ثلاثة عمال يجلدون بالسياط لانهم حاولوا الهرب من المزرعة التي يعملون فيها ، وكان ذلك في ساحة السجن الذي كان عند اسفل تل يقوم عليه بيتنا . وقد كان لهذا المشهد اعمق الاثر فيّ ، وما ازال استطيع حتى الآن ان اسمع صوت صراخهم وهم يقاسون الالم المبرح . ولا استطيع ان ارى اي جور وظلم، مهما كان طفيفا، دون ان اثور في صميمي ضده .

« اني اعتقد ان الانسان ، مهما كان وضيعا او فقيرا ، له حقوقه كانسان ولا يمكن حرمانه منها ، وهو كيان لا بد من اكرامه كانسان . وان المثال الاعلى الذي اضعه نصب عيني واسعى اليه بصورة واعية هو ان البشر جميعا اسرة واحدة ، بغضّ النظر عن اللون والعنصر والمعتقد . وانا مقتنع تمام الاقتناع انه لا سبيل للبشرية الى البقاء الا اذا اصبحت الامم عائلة واحدة موحدة ...

« ان لدى كل امة شيئا مهما يمكنها ان تسهم به للصالح العام للعالم باسره – سواء اتخذ هذا شكل قيم من قيمها التراثية ، ام شكل ثروة مواردها الطبيعة ، ام قيمها الثقافية ، ام معرفتها التقنية والعلمية » .

وقد استثمر مختار لوبيس فرصة سجنهواستطاع في اوقات فراغه ان يتعلماللغات الاسبانية والالمانية والايطالية وان يتقنها . كما انه كتب روايتين وعددا من القصص القصيرة . وتعلم الرسم والنحت بالخشب ، وبنى فرنا كيما يتعلم صنع الخزف . وقد تعلم ايضا اللعب على القيثارة، وشكلفرقة موسيقية.

وقد وجدت بعض قصصه الجديدة طريقها خارج السجن . واحداها هي « القبر المقدس » ، التي ننشر ترجمة لها في الصفحات التالية ، والتي تنشر هنا لاول مرة في اية لغة .

مختار لوبيس
القبر المقدّس

منذ اسبوع والقرية كلها في لغط. جميع الناس يتحدثون عن القضية : الشيوخ والمتعلمون ومعلمو القرية والمختار والموظفون عنده ، وجميع النساء والشبان، وحتى الاولاد الصغار.

قال الحاج انجكوس : « يا لها من فضيحة » .

وقال المختار : « يا للعار » .

وقال الحاج عبدالله ، وهو يهز عصاه المصنوعة من خشب الابنوس : « انه انتهاك للحرمات » . وكانت لحيته البيضاء تهتز من شدة الغضب . وملأت الدموع عينيه الراشحتين الهرمتين .

ثنّى عليه الحاج انجكوس : « انها اهانة للدين . ليست اقل من ذلك ابدا » .

وصاح الحاج عبدالله : « يا لهم من كفار وثنيين يدعون انفسهم مسلمين عصريين كذابون . كلاب » . وضرب الحاج الطاولة بعصاه . وتململ المختار بعصبية .

« سافقد وظيفتي ايضا » ، صاح باك كنتونغ بصوت يائس مرتبك .

وقال المختار مغتما : « وستفقد قريتنا اعظم جاذب فيها ».

وصاح باك كتجل ، تاجر القرية : « وسيتوقف اهل القرى الاخرى عن المجيء الينا وسنخسر تجارتنا » .

وتمتم المختار وهو شارد الذهن : « انها مصيبة . حقا انها مصيبة » .

وسأل باك كتجل : « هل رأيتم كيف يزرعون الاشجار الكافرة حول الموقع من اجل مسجدهم ؟ »

« لعنهم الله من كفار » ، قال الحاج انجكوس .

وقال امات الصغير ، ابن المختار ، لصديقه اندجا : « هل تعلم انهم سينقلون القبر المقدس من رأس الجبل ؟ لقد اخبرني والدي انهم اشعروه بانهم سيفتحون القبر المقدس وسينقلون رفات قيس حجي مولانا العربي » .

سأل اندجا الصغير : « ولكن لماذا ؟ »

اجابه امات الصغير ، باهمية : « قال والدي انهم سيبنون مسجدا على رأس الجبل » وانضم للحلقة عدد من الاولاد . وانضم ايضا شبان جاؤوا للاستماع الى امات الصغير

وشعر الصبي الصغير فجأة انه اصبح مهما . « قال والدي انهم اشتروا هـذه التلال الثلاثة وقطعة ارض كبيرة قرب النهر . وقال ابي انهم سيبنون مدرسة عصرية ، حيث سيعلمون العلوم الحديثة ، وليس القرآن فقط » .

سأله احدهم : « وما هي العلوم الحديثة ؟ »

« لست ادري » ، اجاب امات ، منزعجا قليلا من ان يُسأل سؤالا صعبا مثل هذا. وقال بمزيد من الاهمية : « لكنني اعرف شيئا واحدا . انهم ينوون ان ينقلوا القبر المقدس من رأس الجبل . سيبنون جامعا هناك » .

فقال احد الاولاد : « لكن ذلك خطر جدا . سيموتون اذا تجرأوا على فعل ذلك ».

وقال صبي آخر : « نعم . الا يعلمون انه قبر مقدس جدا ؟ »

فقال امات الصغير : « لعلهم لا يعرفون قصة الرجل الابيض الذي رفض ان يؤمن بقداسة القبر واهانه بان وضع حذاءه الايمن على لوحة القبر فمات بعد ايام قليلة فقط » .

« وقصة حمزة العجوز الذي اقسم بالقبر بالباطل فوقع للحال ميتا » ، اضاف اندجا .

« وكل المعجزات التي اجترحها القبر » ، قال ولد آخر . « ذهبت امي الى القبر وطلبت بركته ، وبعد اسبوع مات جدي ، وورثت امي عنه حقلا كبيرا من الارز » .

وقال احد الشبان : « اتذكر ستي عائشة ؟ كان قد مضى على زواجها من الحاج المحكوس العجوز خمس سنوات تقريبا ولم تنجب له ولدا . ونوى الحاج ان يطلقها بسبب ذلك . فذهبت الى القبر وطلبت ولدا . وبعد سنة تقريبا ولدت طفلا قوي البنية » .

قال امات الصغير بالمزيد من الاهمية : « من يدري انهم لن يؤذونا ويؤذوا القرية بسبب نقلهم للقبر ؟ »

ارتعب الجميع لدى سماع هذه الفكرة . حتى الصغار اخذوا يتهامسون عن الكفار الوثنيين الملعونين . كلا ، يجب الا ينقلوا القبر المقدس .

وشعرت نساء القرية باضطراب خاص من هذا الخبر . افلن تتعطل قدسية القبر المقدس وقدرته اذا ما نقل ؟ والى اين سيذهبن اذاً لنيل المساعدة لتحقيق رغباتهن السرية ؟ كيف يستطيع الزوجة زوجا شاردا ، وكيف تكسب الفتاة قلب شاب ، وكيف تتمنى الشابة هربنيا ، وكيف تطلب الزوجة ابنا ، وكيف تطلب المرأة مطرا او محصولا جيدا او شفاء للعقل او الجسد او القلب او النفس ؟

منذ اقدم الزمان الذي يمكن تذكره وهم يذكرون ان القبر كان هناك دائما ، بسرادقه من القماش الاصفر ، بسدانة عائلة كنتونغ التي تتوارث خدمته جيلا بعد جيل . ان القبر المقدس ، بالنسبة لهم وللبلدة كلها ، رمز للخلود . كلا ، انه اكثر من رمز : انه مرساة . لقد مرساتهم ايام الشك والضيق . كان جزءا من حياتهم ، واعطى معنى لوجودهم ، واعطاهم

الراحة والقوة والآمال ، واعطاهم الاحلام .

والآن جاء اغراب يريدون ان يفتحوا قبرهم المقدس هذا وان ينقلوه .

كلا . الف مرة كلا . الموت افضل من السماح لهم بذلك.

وكان شيوخ القرية قد وصلوا الى القرار نفسه في اجتماعهم في بيت المختار . يجب ان يقاوموا بكل قواهم مخطط الشيطان هذا لنقل القبر المقدس .

وقرروا ان يرسلوا المختار والحاج انجكوس، وهما كبيرا البلدة واوسع السكان اطلاعا لمباحثة الاغراب .

في اليوم المعين صعد المختار والحاج انجكوس الجبل خارج القرية لمقابلة سنوسي ، مدير المدرسة الجديدة . وكان شابا يناهز السادسة والثلاثين من العمر. وكان مشغولا بمراقبة زرع الاشجار الكافرة عندما وصل المختار والحاج انجكوس قمة الجبل حيث كان القبر المقدس ، فوجها له تحية غاضبة ، لكن سنوسي لم يسمعها بسبب قصر انفاسهما لمشقة ارتقاء الجبل وبسبب ضجة الجرارة وهي تحفر الارض في الوادي وتزيح التراب .

جفل سنوسي ونظر الى اعلى حينما سمع الرجلين يقولان : « السلام عليكم » . ونظر كلاهما الى وجه سنوسي المذعور برضى . رأيا فيه شيئا من الشعور بالاثم . « جئنا اليك لنتفاوض معك بشأن القبر المقدس. جئنا باسم البلدة كلها . وبسلام نجيء » ، قال له المختار بكثير من الرسمية والوقار .

فانتصب سنوسي ، ومسح يديه ببنطلون العمل الازرق الذي كان يرتديه . وقال لهما وهو يصافحهما ويرد عليهما السلام، مقلدا رسميتهما ووقارهما: « يسرني انكما جئتما للتفاوض بسلام . نحن ايضا نريد التفاوض معكما ونريد ان نعرض اهدافنا وافكارنا على القرية وخاصة على شيوخها الحكيمين المعتبرين امثال المختار الوقور والحاج العالم . اننا نريد السلام والتعاون مع البلدة » .

وطلب منهما ان يرافقاه الى كوخ بني مؤقتا على الجانب الآخر من قمة الجبل .

التفت المختار والحاج انجكوس الى الوراء الى القبر المقدس . كان بالفعل مزارا جميلا وقديما . وكان مبنيا من حجارة النهر السوداء الداكنة، وقد غطاه الآن الطحلب الاخضر مما زاد في مظهر قداسته ومظهر قواه الروحية الصامتة . وكان يمتد فوقه سرادق من القماش الاصفر معلق من اعمدة اربعة خشبية منحوتة ، ويظلل القبر والسرادق معا من المطر والشمس سطح يقوم على اربعة اعمدة خشبية ضخمة منحوتة نحتا اكثر تنميقا وجمالا . وكانت تقدمات البيض والياسمين والورود وازهار الكينانجا تنتثر فوق القبر ، بينما كان البخور يحرق باستمرار في اصصه . ونمت في الخارج بلصق القبر شجرة ياسمين كبيرة ربط اليها

خراف ثلاثة، وهي تقدمة من حاج غني من قرية اخرى . كما كانت هناك تقدمات دجاجات حية ، الا انها كانت تبقى يوما واحدا في القبر المقدس ، لتختفي سريعا في قدر باك كنتونغ وغيره من شيوخ القرية. وكانوا قد اوجدوا طريقة جيدة لاقتسام التقدمات القيمة ، كالنقود الفضية والجنيهات وقطع القماش والدجاج والماعز .

وكان باك كنتونغ نفسه يجلس حسب الطريقة المتبعة بالقرب من القبر المقدس ، يقرأ من القرآن الكريم بورع ويؤدي واجبه المقدس الموروث كسادن للمزار .

عمل منظر القبر المقدس الجميل على تقوية عزيمة المختار والحاج انجكوس العجوز وتصميمهما على الدفاع عن القبر المقدس باي ثمن كان. فاستدارا وتبعا سنوسي نحو كوخ العمل وهما يتنهدان . وكان في الكوخ طاولتان وكرسيان ، وعلى الطاولتين اوراق مخططات وتصميمات للمباني والطرقات والاشجار . وازاح سنوسي ما على احدى الطاولتين ، ووضع الكرسيين في المكان المناسب ، ودعا ضيفيه المتجهمين الى ان يجلسا.

ثم جلس هو ، وقدم لهما السجاير .فاعتذر المختار والحاج انجكوس بادب ، لانهما اعتقدا ان من غير اللائق ان يدخنا سجاير عدو. غير انهما اعتذرا بلطف ، قائلين انهما غير معتادين على تبغ المدن وانهما يفضلان التبغ الحاضر الذي يلفه اهل القرى بانفسهم باوراق نخل نيباه.

قال المختار : « باسم جميع السكان الطيبين في القرية ، قرية الماء الاصفر ، نأتي اليك لنطلب منك بكل غيرة وحماس ان لا تفتح القبر المقدس ولا تنقله . ان ذلك سوف يغضب روح قداسة قيس حجي مولانا العربي ، ولا بد ان ينزل المصائب على البلدة باكملها ، وعليك وعلى اهلك واصدقائك .وقد اعذر من انذر » .

رد سنوسي بجد : « لقد بلغت انذارك ، واني اشكرك عليه . لكن هل يمكنك ان تحدثني عن هذا القبر المقدس وعن تاريخه ؟ »

تنحنح الحاج انجكوس . ان الموضوع اختصاصه ، فهو يعرف تاريخ المزار كله ، ولسوف يرويه لهذا الشاب السليط ذي الآراء العصرية .

« انهـــا قصة طويلة » ، قال الحاج انجكوس بوهرة . « القبر قديم جدا ، بحيث انه لا يوجد بين ابناء البلدة الحاليين من يستطيع ان يتذكر متى تم بناؤه . لا بد انه بني قبل مئات من السنين ، حينما كان اهل جاوه لا يزالون يعبدون الاصنام . فجاء ولي من الجزيرة العربية للتبشير بالاسلام . ومن هنا عرف باسم مولانا العربي . ولم يؤمن الناس ، وطالبوه بان يبرهن لهم على وجود الله العلي القدير وعلى قدرته . وجدير بالذكر ان مياه البلدة كانت في ذلك سائغة صافية . ولكن حدث ذات يوم ، حينما الح ابناء القرية عليه بان يبرهن لهم على وجود الله تعالى ، ان تضرع حجي مولانا الى الله ان يجعـــل مياه النهر صفراء دائما وبذلك يلقن اهل القرية المتكبرين درسا في التواضع . فتحولت مياه النهر في الحـــال الى

صفراء ، ولا تزال كذلك الى اليوم . وسميت القرية قرية المـــاء الاصفر منذ ذلك الحين وهكذا اسلم السكان . وصنع حجي مولانا معجزات اخرى بقدرة الله العلي القدير . فقـد عرف عنه انه كان يساعد في جعل السماء تمطر بعد المواسم الجافـــة الطويلة ، وفي جعل العواقر يحبلن والازواج العقيمين يخصبون. وكان يستطيع الطيران الى مكة المكرمة والعودة منها في رمشة عين . وكانت وحوش الغابة تهابه ولا تجرؤ على الهجوم عليـــه . وكانت الافاعي والعقارب السامة تخاف منه ولا تلسعه . لقد كان وليـا عظيما . وعندما مات احتجبت الشمس يوما كاملا. وهكذا فانه دفن على رأس الجبل، واصبح قبره مزارا مقدسا منذ ذلك الحين . استطيـع ان اروي لك كافة المعجزات التي اجترحها قبره المقدس ...»

لكن سنوسي اشار بيده ، وابتسم ، وقال : « اشكرك كثيرا على سرد هـذه القصة ومع هذا لابد من نقل القبر . الا اننا سننقله بمنتهى الاحترام الذي يستحقه . وقـد وجدنا مكانا مناسبا له ، اقرب الى القرية، وسيجد الناس سبيلا ايسر اليه مما هو الحال الآن وهو في رأس الجبل » .

« لكن هذا انتهاك للحرمات . ان القرآن الكريم يحرم فتح القبور ونقلها » ، قال الحاج انجكوس ، واستشهد باقوال بالعربية .

فاستشهد سنوسي بدوره باقوال عربية اخرى ، ونبه الحاج العجوز والمختار الى انه لا يوجد في القرآن الكريم اي نص يحرم نقل القبور ، مقدسة كانت او غير مقدسة .

قال الحاج انجكوس : « لكني اشك بكلامك ، ايها الفتى ؛ مع انه يبدو عليك انك تحفظ آيات القرآن الكريم والاحاديث النبوية حفظا جيدا ، الا انك لا تظهر بالمظهر الذي يجب ان يبدو على الشاب المسلم التقي ، بل انك تزرع اشجارا كافرة ايضا » .

فتجهم وجه سنوسي وقال: « اشجار كافرة ؟ انها ليست اشجـــارا كافرة . انها اشجار صنوبر » .

« ابدا . يمكنك ان تسميها اشجار صنوبر ، الا انها في الحقيقة اشجار كافرة . انها لا تزرع الا امام الكنائس، ويستعملها النصارى بشكل خاص للاحتفال بعيد الميلاد عندهم»

تأوه سنوسي ، وقام وسار نحو الطاولة الاخرى ، واخذ كتابا وفتحه ، واطلع الحاج العجوز والمختار على صورة مسجد جميل كبير محاط باشجار الصنوبر . قال : « انظرا الى هذه . انها صورة مسجد كبير في القاهرة . انه محاط من كل جوانبه باشجـار الصنوبر. انظرا الى هذه الصورة » (وقلب عدة صفحات) « وهذا مسجد في لبنان . هو ايضا محاط باشجار الصنوبر . وهذا... وهذا ... وهذا. انها ليست اشجارا نصرانية ، لكنها مجرد اشجار صنوبر . انت لا تعني ان العرب والهنود كفار جميعهم، لانهم يزرعون اشجار الصنوبر في حدائق مساجدهم ؟ »

صمت الحاج انجكوس برهة . كان صعبا عليه ان يسلم للشاب بالقضية وهما بعد في بدء المفاوضات . ذلك امر سيء .ولكن لم يكن بامكانه الا ان يعترف للشاب بانه على صواب.

حدج الحاج انجكوس سنوسي بقسوة وقال : « حسنا ، حسنا . فلنقل انهـا اشجار صنوبر ، مع انها ما تزال تبدو لي كالاشجار النصرانيةالتي يستعملها النصارى فيعيد الميلاد، ولن ازرع منها امام مسجدي ابدا » .

فابتسم سنوسي له، واغلق الكتاب، وقال:« اسمعا، ايها الحاج العلامة والمختار الموقر. اننا جئنا الى هنا كمسلمين اتقياء ، لنبني مدرسة جديدة لن نعلم فيها كافة العلوم الاسلامية وحدها بل العلوم الحديثة ايضا . اننا نريد ان نثقف صنفا جديدا من المرشدين الدينيين في القرى ، لا يكونون زعماء دينيين فحسب بل بل زعماء اجتماعيين كذلك الحال . يجب الا يعيشوا بعد اليوم على حسنات الناس ، بل يجب ان يكون في وسعهم ان يساعدوا الناس . يجب ان يكون بامكانهم اسداء النصح والارشاد في الشؤون الدينيـــة ، ولكنهم يجب ان يكونوا قادرين في الوقت نفسه على نصح القرويين وارشادهم ليحسنوا المحاصيل، ويطوروا وسائل الري، ويحسنوا نسل مواشيهم، ويبنوا زرائب احسن للدجاج، ومطابخ احسن في البيوت ، ويحسنوا الوسائل الصحية في القرى ، ويستفيدوا اكثر من خيرات الطبيعة التي تحيط بقرانا ، ويصنعوا اشياء جميلة ومفيدة من البامبو والياف النخيل وغيرها من المواد ، ومن الطين ايضا؛ ويجب ان يعرفوا كيف ينمون فنون الشعب شبه المنسية ، وفنون الصياغة والحدادة ؛ نريد ان نجعلهم يحبون الاشجار والنباتات والازهار والفواكه والخضار والطيور والحيوانات في الادغال واشجار الادغال والادغال نفسها. نريد ان نعلمهم ان هذه الاشياء يجب ان يقوم بها القرويون بانفسهم لانها اساس امتنا . اننا امـــة انعم الله تعالى عليها بان جعلها تعيش في حديقة من الطبيعة الحية ، وعلينا ان نحافظ على هذا التراث . هـــذا هو واجبنا كمسلمين . انه واجبنا تجاه الله تعالى نفسه » .

قال الحاج انجكوس وهو مقطب الوجه: « تتكلم بطلاقة ايها الشاب، كلاما معسولا. لكن لماذا يتوجب عليك ان تنقل المزار ؟ »

« لاننا نريد ان نبني جامعنا هناك ، ولاننا ... » (ونظر الى الحاج الهرم نظرات صارمة) « نريد ان نمارس الاسلام الصحيح والحقيقي . يجب ان نعبد الله لا الاصنام او القبور المقدسة . الم يقل الله تعالى :لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن ان كنتم اياه تعبدون ؟ »

لم ينبس الحاج انجكوس والمختار ببنت شفة ، وقد جابههما سنوسي بهذه الآية المستمدة من القرآن الكريم نفسه. ووجد الحاج العجوز انه لامر صعب جدا ان يجادل هـذا الشاب المتعلم المطلع . الا انه لن يستسلم بهذه السهولة للشاب الاحمق .

« حسنا » ، قال : « اننا لا نستطيع ان نجبرك على التخلي عن خططك المجنونة فالارض ارضك . وقد اشتريتها شراء ودفعت مبلغا محترما من المال ثمنا لها . ان كنت تحب ان تراعي مشاعر القرويين الطيبين فنحن لا نستطيع ان نجبرك على ذلك . لكني مضطر ان اطلب اليك ان تجري عملية النقل بعناية وباحترام تام لبقايا مولانا الولي . فعليك ان تذبح ثلاثة خراف على الاقل ، ويجب تلاوة الصلوات المناسبة ... »

سارع سنوسي الى القول : « بالطبع . اوافقك تمام الموافقة . بل اني اطلب اليك ان تقود انت مراسيم الاحتفال » .

فكر الحاج انجكوس في الامر بسرعة . فكر انه لا بد ان يكسب بعض الاحترام والجاه ان هو فعل ذلك . فوافق .

وجد كل من المختار والحاج انجكوس الهرم صعوبات جمة في اقناع القرويين بقبول نقل المزار . فقد اراد عدد من القرويين المتحمسين حماية القبر المقدس بالقوة . ولم يستطع الحاج انجكوس ان يهدىء الناس ويقنعهم بالاشتراك في الاحتفالات الا بفضل تفوقه عليهم بمعرفة القرآن الكريم وبفضل وقاره ، الى جانب تصريح المختار بان القرية لا حق لها بالقبر المقدس من الناحية القانونية لانه ليس قائما ضمن اراضيها .

وهكذا ، وفي اليوم المناسب الذي جرى اختياره ، توجه اهل القرية باسرها نحو رأس الجبل . وبالرغم من بقاء بعض المشاعر بالخوف عند الكثيرين ، شعر الناس بجو احتفالي وخاصة الشبان والاولاد ، الذين قدم لهم سنوسي الاكل والشراب بلا حساب . وتبع مشايخ القرية ، بقيادة الحاج انجكوس ، صلواتهم حول القبر المقدس من سائر جنباته . ثم نحرت الخراف الثلاثة . وطوى باك كنتونغ السرادق الاصفر بيد ترتجف . وتنهد سنوسي . الا ان الشبان الاربعة الاشداء الذين اوكل اليهم نبش القبر رفضوا التحرك . فقد اخذ الرعب في اللحظة الاخيرة ، وابيضت اعينهم واتسعت من الهلع .

قرر سنوسي ان يكون قدوة لهم . فاخذ مجرفا ، وقال بصوت عالٍ : « باسم الله الرحمن الرحيم » ، وضربه عميقا في القبر .

اوقف الجميع انفاسهم . هل ينتقم الروح المقدس وهل يقع الشاب ميتا عند اقدامهم ؟ وقذف المجرف بحفنة اخرى من التراب . ولم يحصل شيء . فتجرأ احد الشبان الاربعة عندئذ وانضم الى سنوسي . وللحال انضم اليهما الثلاثة الآخرون . وتنفس الجميع بارتياح وقد زال عنهم الرعب بعض الشيء . وحفروا المزار القديم الى العمق المطلوب . ومع هذا لم يعثروا على شيء .

وصاح سنوسي بالشبان ان يحفروا اعمق . وحفروا اعمق ، ومع هذا لم يعثروا على

قايا . واخيرا طلب سنوسي منهم ان يتوقفوا . وقال لاهل البلدة : « ان القبر فارغ . ان القبر المقدس هذا خدعة » .

واصفر وجه باك كنتونغ . وصمت الجميع .

لكن الحاج انجكوس وجدها فرصة مناسبة . صاح : « كلا . ابدا . هذا القبر ليس فارغا . انما هو يبرهن لنا على قوة مولانا الولي الروحية . لقد اخذت روحه الغضبى بقاياه المقدسة حتى لا تقع عليها الاعين الشريرة . علينا الآن ان نذبح وعلا ونجعله تقدمة لنهدىء من روحه وكيلا تحل بقريتنا مصيبة . وعليك انت ان تقدم الوعل » ، صاح بسنوسي واشار باصبعه الاتهامي اليه .

ففكر سنوسي بسرعة ، وقال : « حسنا . يقول الحاج الشيخ ان روح مولانا الولي قد اخذت بقايا جسده . وانا اكرر ان القبر خاوٍ وخدعة . ساذبح وعلا ، انما بعد اسبوعين من الآن وليس قبل ذلك . اذا كنت على خطأ فان شيئا سيئا لا بد ان يحصل لي خلال الاسبوعين ، لاني تجرأت على فتح القبر . لكن ان لم يحصل لي شيء فان ذلك يعني ان القبر فارغ بالفعل وانه ليس مقدسا وليس هناك مولانا الولي على الاطلاق » .

وارتعب الجميع من سماع هذا الكلام الجريء . وتوقعوا ان يروا سنوسي يسقط ميتا عند اقدامهم ويتحول رأسا الى تراب . ولكن لم يحصل شيء من هذا .

في خلال الاسبوعين التاليين اعتنى اصدقاء سنوسي به عناية شديدة . لم يكن بوسعهم ان يسمحوا بوقوع اي حادث مفاجيء له ، كأن يكسر قدمه او ذراعه ، ولا حتى ان يصيبه وجع رأس او تلبك معدة . وحبست القرية كلها انفاسها ، تنتظر حصول شيء ما . وانقضى الاسبوعان . وامر سنوسي الجرارة بتهديم القبر القديم . وبدأ العمل لبناء المسجد الجديد .

وبعد اسبوع ، وبينما كان سنوسي مشغولا بمراقبة العمال ، جاءه ابن المختار يصعد الجبل راكضا ، ليطلب اليه ، وهو يكاد يفقد انفاسه ، بان يذهب معه للقرية لان باك كنتونغ يختنق شنق نفسه ومات . فركض سنوسي وراء الولد نحو القرية . وكان ينتظره امام بيت باك كنتونغ جمهور كبير ، ما ان رأى سنوسي حتى اخذ يتوعده ويتهدده . ففقز سنوسي الى الشرفة ودخل البيت منها .

كان باك كنتونغ ممددا على سريره المصنوع من قصب . وكان هناك جميع مشايخ القرية وحجاجها والمختار .

وجس سنوسي نبض باك كنتونغ ، ثم وضع رأسه على صدره فأحس بضربات قلب خفيفة .

«كلا انه لم يفارق الحياة بعد» . وبدأ يجري له تنفسا اصطناعيا . لمدة خمس واربع دقيقة ظل يعمل . واخيرا بدأ قلب باك كنتونغ يضرب بشدة .

عمت الغرفة تنهدات الدهشة : «آ ا اه ...» ، وانتشرت في خارج البيت ، ثم القرية كلها .

قال احدهم بورع : «انها لمعجزة» .

وقال آخر ، بصوت منخفض ، وهو نصف خائف: «ان للرجل الجديد قوى روح تحيي الميت» .

وتمتم آخر : «الرجل الجديد ولي» .

وانتشرت القصة وتضخمت .

وبعد مدة اخبر باك كنتونغ سنوسي ، بعد ان قبل يديه حسب طريقة تقبيل اي الاولياء لاظهار مشاعر التكريم لهم ، بانه حاول ان ينتحر لانه شعر ان حياته فار وذهبت سدى ، بعد ان اقتنع انه كان سادنا لقبر فارغ طول حياته. لم يكن القبر مقدس وكان خاليا ايضا ، قال وهو يتنهد. وابوه وجده وابو جده وجد جده ، كلهم أُخذوا ب الخدعة . «حتى الاطفال شرعوا يتهامسون باني خداع وان اسرتي خدعت القرية والق الاخرى من جيل الى جيل . كان كل واحد يضع اللوم عليّ . حتى رجال الدين بد يقولون الشيء نفسه . وقالوا اني احمق ...». واخذ يبكي .

حاول سنوسي ان يخفف عنه . «الشيء نفسه يحصل مع الاحياء . يستطيع زعيم ان يأسر قلوب الناس ، ويعدهم وعودا كبيرة ، ويخدعهم . لكن عندما يعرف الن الحقيقة لا ينتحرون بل انهم يخلعون الزعيم الاجوف. الشيء نفسه في حال القبور المقدس عندما نعلم انها فارغة وخدعة كبيرة نقذف بها ونحاول ان نعثر على الحقيقة الصحيحة

قال باك كنتونغ : «نعم ، انت على حق . انك لحكيم . انك انت الآن ولينا وقبل يدي سنوسي بسرعة ، وركض نحو القرية لينبىء سكانها بالخبر السعيد الجديد .

عبثا حاول سنوسي ان يحتج بانه ليس وليا لجماعات الرجال والنساء والكبار والص ممن تدفقوا عليه وطلبوا منه البركة والوعد بتحقيق احلامهم وآمالهم ورغباتهم السر لم يصدق احد انه لا يملك قوى خارقة ، ما دام قد بعث باك كنتونغ حيا من الموت مجرد لمسة من يده تكفي ، او مجرد شرب ما تبقى في كأسه من ماء .

وهكذا عادت القرية الى سعادتها وطمأنينتها . فقد عثرت على وليها الجديد .

وكانت المشاعر المتناقضة تتصارع في قلب سنوسي . فكان، في الوقت ذاته، يتض وينفر من دوره الجديد ،ومع هذا كان يشعر بنفسه منجذبا انجذابا غريبا نحو هذا الد